بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية – غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم اللغة والنحو

حاشية الفيشي

على شرح قطر الندى وبل الصدى(دراسة وتحقيق)

رسالة ماجستير مقدمة من الطالب

سهيل أسعد سلمان أبو زهير

إشراف

أ . د . محمود محمد العامودي
أستاذ النحو والصرف في الجامعة الإسلامية

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
من قسم اللغة العربية في كلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة

العام الجامعي
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

شكر وتقدير

أتقدم بتقديري وشكري الجزيل إلى أستاذي الدكتور
محمود محمد العامودي
مشرفي .. الذي كان البحث بفضله فكرة
ثم أضحى واقعاً ...
فتح أمامي بيته ، وأمدني بما احتجته من مراجع ...
منحني وقته وجهده
فجزاه الله خيراً عني وعن العلم والعلماء .

سهيل

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين ، ومن سار على نهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين ، وبعد .

إنما كان البحث والسعي خلف العلوم المجردة والإنسانية سبيلاً ضرورياً يخوضه المهتمون من العلماء ، وتطرقه الشعوب الحضارية المتقدمة ، لأجل السير على خطى ثابتة في أي مجال من مجالات الحياة وأهدافها ، والآخرة وأترافها ، فيصلح الطريق وتُبلغ الغايات.

ويعتبر الغوص في بحور البحث العلمي حفاظاً على التراث ، وتقوية للمسيرة ، وليست النصوص التراثية التي أورثَنا علماؤنا أوراقاً ننظر إلى خطوطها بالإعجاب ، أو أشكالها بإسهاب ، أو لِندعو الله إلى أصحابها بالاحتساب،بل هي درر غلفها غبار الزمان بترك العلماء ، وتنكُّر الآباء والأبناء من حملة اللغة والدراسات الذين لم يعلموا ما أفادته تلك الموروثات للأعداء والأصدقاء على حد سواء .

سبب الاختيار :

لما كان كتاب القطر وشرحه من الكتب التي تفخر بها مكتبة النحو العربي لما يحويه من أقوال النحاة ومواقفهم وآرائهم في كثير من القضايا محط الخلاف ، وما يحفل به من الشواهد، إضافة إلى كون ابن هشام أحد علماء العربية البارزين ، ماهراً فيها ، حسن التعليم لها ، عالماً بفنون غيرها ، عبقرياً موهوباً ؛ فان دراسة حاشية صنعت على شرح القطر لجديرة بالدراسة ، ولقد كان الفيشي رحمه الله أحد أصحاب هذه الحواشي ، وهو الذي تتلمذ على علماء أجلاَّء كاللقاني والشنواني ، وتتلمذ عليه كثير من الشُّراح بعده أمثال الدلجموني والسجاعي .

أهداف الدراسة :

يهدف البحث من تحقيق ودراسة حاشية الفيشي على شرح القطر إلى :

أ- رفد المكتبة العربية بنص تراثي هام لازال طي النسيان .

ب- الكشف عن شخصية نحوية أزهرية مغمورة ، وإماطة اللثام عن جهودها وآثارها العلمية.

ت- رصد الحركة العلمية النحوية التي راجت في العصر الذي عاشه الفيشي ، والتعرف على اهتمامات علماء ذلك الزمان وجهودهم النحوية .

ث- دراسة بعض حواشي قطر الندى وبل الصدى ، دراسة تحليلية موازنة ، تهدف إلى التعرف على مناهج هذه الشروح ومواضع التأثير والتأثر بينها ؛ كما تهدف إلى إبراز قيمة حاشية الفيشي النحوية .

الصعوبات :

يعد علم تحقيق النصوص من العلوم التي تحتاج جهوداً متعددة يحسن بالباحث الذي يخوضها أن يكون واسع الصدر ، صبوراً ، إذ إن جلب المعلومات وتوثيقها ، وردها إلى أصولها يحتاج جهداً ووقتاً لا يستهان بهما.وتختلط رحلة البحث برحلة الحياة الملأى بالمتاعب ، ما يجعل الأمور تتعقد أو تتوقف أمام وقت غير مناسب ، أو ظروف سياسية غير مواتية ، أو عوائق مادية كالنتوءات القاسية على الطريق تخدش المسيرة هنا وترهقها هناك ، ولكن بتوفيق الله ، بعد سؤاله ، والوقوف الطويل ببابه ، وهو الملجأ والملاذ ، تسيَّر الأمور وتذهب العقبات .

وقد واجهتني صعوبات عديدة أجملها فيما يلي :

- التأخر في ورود النسختين الأخريين من جمهورية مصر العربية بسبب الإجراءات المعقدة .

- عدم القدرة على إحضار بعض الدراسات اللازمة لإثراء البحث ما يضطر إلى تحويل بعض المسارات ، وهذا يحتاج وقتاً وجهداً .

- معلومات كثيرة لم تكن في متناول اليد بل احتاجت إلى شهور حتى تمكن الباحث من الحصول عليها عند بعض الأساتذة أو الدارسين أو الأصدقاء .

- عدم وضوح معظم مخطوطات الدراسة والموازنة ، ما تطلب جهداً ووقتاً .

الدراسات السابقة :

لم أقع على أية دراسة سابقة حول العلامة الفيشي ؛ إذ لم تزل حاشيته على شرح شذور الذهب مخطوطة ، وكذلك حاشيته على مختصر الشيخ خليل في الفقه ، وها هي مخطوطته على شرح القطر - بين أيديكم - قيد التحقيق والدراسة ، ولكنَّ دراسات لنيل درجة الدكتوراة أو الماجستير قد أجريت على حواش لعلماء آخرين على شرح قطر الندى وهي:

مجيب النِّدا إلى شرح قطر الندى للفاكهي – دراسة وتحقيق (الجزء الأول) لمها سعد سكر نالت بها درجة الدكتوراة من كلية التربية بالرياض .

شرح على قطر الندى – التعليقة المفيدة ، لمعمر المكي (ت٨٩٧هـ) ، وقد تمت دراستها على يد الباحث حسان بن عبد الله الغنيمات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ونال بها درجة الماجستير عام ١٤١٢هـ .

مجيب الندا إلى شرح قطر الندى،للفاكهي(ت٩٧٢هـ) ،وقد تمت دراستها على يد الباحث إبراهيم جميل إبراهيم في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ونال بها درجة الماجستير عام ١٩٩١م .

شرح عبد الملك العصامي على قطر الندى – بلوغ المرام في حل قطر الندى(ت١١١١هـ) وقد تمت دراستها على يد الباحث محمد سعيد ربيع الغامدي في جامعة أم القرى ونال بها درجة الماجستير عام ١٤١٦ هـ .

مغيث النِّدا إلى شرح قطر الندى ، للشربيني ، تمت دراستها على يد الباحث ناظر بن محمد الجميلي في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ونال بها درجة الماجستير عام ١٤١٢هـ .
الشربيني النحوي في ضوء كتابه مغيث النِّدا إلى شرح قطر الندى ، تمت دراستها على يد الباحثة مريم فواز في جامعة دمشق .
السجاعي وجهوده اللغوية – مع تحقيق كتابه حاشية السجاعي على القطر ، إعداد الطالب أحمد محمد عطية بحر نال بها درجة الدكتوراة في العلوم اللغوية من برنامج الدراسات العليا المشترك بين جامعة عين شمس بالقاهرة وجامعة الأقصى بفلسطين ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

خطة البحث :

لقد تطلبت منهجية البحث - إضافة إلى المقدمة والتمهيد - تقسيمه إلى قسمين أولهما للدراسة والآخر للتحقيق ، حيث يتضمن القسم الأول منهما ثلاثة فصول ؛ خُصِّص الفصل الأول منها للتعريف بالعلامة الفيشي ؛ عصره وحياته : شيوخه وتلاميذه ، ثقافته ومؤلفاته ، ومكانته اللغوية ، ووفاته.

ويهتم الفصل الثاني بدراسة حاشية الفيشي دراسة تحليلية ، وفيه ذكْر للشواهد الحاشية ومصادرها ، والأصول النحوية عنده ، والوقوف على بعض آرائه النحوية ، والتعرف على مذهبه النحوي .

وأما الفصل الثالث فللموازنة بين حاشية الفيشي وبعض الحواشي السابقة واللاحقة ، والتعرف على مكانة الفيشي بين هؤلاء الشُّراح وقيمة حاشيته بين حواش ثلاث للشنواني والدلجموني والسجاعي بعد دراسة تحليلية لكل منها ، والتنبيه على الفروقات الهامة بينها ونقاط التأثير و التأثر.

وفي القسم الثاني أقدم مخطوطة حاشية الفيشي على شرح قطر الندى وبل الصدى محققة ؛ ويشمل تحقيقها ثلاثة محاور هي:

الأول: وصف نسخ المخطوطة .

الثاني : توثيق ونسبة الحاشية للفيشي .

والثالث : النص محققاً .

منهج البحث :

وقد سرت - في سبيل ذلك - على المنهجين : المنهج الوصفي التحليلي ؛ لما في الدراسة من مناحٍ تحليلية ، وأما في التحقيق فقد سرت على منهج المدرسة الرمضانية في تحقيق النصوص .

حق وعرفان :

الشكر لله رب العالمين الذي منَّ عليَّ بالصحة والمكُنات ، والوقت والبركات ، ثـم للأخيـار الكرام ، ومنهم أبي رحمه الله ، الرؤوف الرحيم بلا حدود ، وأمي التي دعـت بتـوفيقي قبـل انتقالها إلى رحمة الودود ، وأخوات لا يمللن من وصل دائم ، وأخوةٌ كبيرهم رحيم وصـغيرهم مؤازر ، وأقارب لا يفترون عن دعاء عريض ، وأصهار لم يقصِّروا .

وأتقدم بتقديري وشكري الجزيل إلى أستاذي الدكتور محمود محمد العامودي ، مـشرفي .. الذي كان البحث بفضله فكرة ثم أضحى واقعاً ... فتح أمامي بيته ، وأمدني بمـا احتجتـه مـن مراجع ... منحني وقته وجهده فجزاه الله خيراً عني وعن العلم والعلماء .

واتقدم بالعرفان من الدكتور جواد الدلو عميد كلية الآداب المحترم والدكتور صالح الرقـب عميد الدراسات العليا المحترم لاهتمامهما بطلبة العلم وعملهما الدؤوب على تذليل الصعاب .

كما أشكر الأستاذين الجليلين الأستاذ الدكتور نبيل خالد أبو علي والدكتور محمد البـع لمـا قدماه من جهد في تقييم خطة بحثي وتهذيبها حتى أصبحت بصورة ساعدتني في إتمامـه علـى أفضل وجه .

وأشكر الله للعالِمين الفاضلين الأستاذ الدكتور فوزي إبراهيم أبو فياض الأستاذ المشارك فـي اللغويات في الجامعة الإسلامية ، والأستاذ الدكتور سلاَّم عاشور الأستاذ المـشارك فـي النحـو والصرف في جامعة الأقصى اللَّذين تجشَّما عناء قراءة بحثي هذا والاطلاعِ الـدقيق فـي كـل صغيرة وكبيرة منه ؛ لنصحي وتوجيهي ، ثم تقييم جهدي بما تفيض به قريحتاهما .

وأتقدم بالشكر من رُسل العلم الذين لا يكَلُّون ولا يَملُّون ، أساتذتي في قسم اللغـة العربيـة بالجامعة بلا استثناء ، الذين لم يبخلوا عليَّ بما احتجته من معلومات أو مراجع ، وعلى رأسـهم مشرف الدراسات العليا في القسم الدكتور جهاد العرجا ورئيسَي القسم السابق والحالي د . عبـد الخالق العف ، و د . محمد تيم .

وأشكر الأخوة العاملين في مكتبة الجامعة الإسلامية جميعاً ، والعاملين في مكتبة بلدية غزة، ومكتبة مركز رشاد الشوا ، ومكتبة وكالة الغوث ، ومكتبة جامعة الأقصى الأفاضل ، الذين لـم يقصروا في تقديم العون لي والإجابة عما كنت أسال .

كما وأشكر الأخ الفاضل الأستاذ أسامة أبو مسامح وزوجه أم عاصم لما بذلاه من جهد فـي طباعة الجزء الأكبر من هذه الرسالة ، وأتقدم بالشكر الجزيل من الأخ محمد أبو غفـرة الـذي ضحى بوقته وجهده في جمهورية مصر العربية لتوفير النسختين الأخريين للمخطوطة ، فجـزاه الله خيراً .

والمسك للأحباب ، ما كنت ناسياً هذا الوفاءَ لأم عمرو فاشهدوا
فلربما يومـاً قسـوتُ فسـامحي وتذكَّري الأحبابَ يومٍ تعاهدوا
والأجـرُ بالصَّـبر الذي أبديتِـه ربـِّي يضاعفُه ، فأنَّى أجحدُ

والحمد لله الذي تتم بذكره الصالحات ، والصلاة والسلام على إمـام المرسـلين ، والـسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تمهيد :

أهمية كتاب شرح قطرالندى ومكانة صاحبه

إنما كانت تسمية الدراسة جارية في إطلاقها على شرح القطر ، دون المتن تجاوزاً ، لتوافقه مع اسم المخطوطة ، ولِما قابل الباحث من إرهاصات أولية ثم حقائق ملموسة لميل الفيشي – رحمه الله – للاقتباس من الشرح بنسبة لا تقل عن الثمانين بالمائة مما أجرى عليه حاشيته ، فيما اكتفى من المتن بالباقي ، وقد عمد الباحث لتوضيح هذه الظاهرة من خلال الإشارة في الهوامش إلى بعض الاقتباسات من المتن ليُستدل على النص من مصدره .

يبدأ الباحث بذكر ابن هشام ومكانته بين النحويين ؛ ليسهل على المطَّلع على كتاب القطر وشرحه وضع صاحبهما موضعه الصحيح والمناسب ، اللائق بمكانته حين تقع عينه على كل حرف من حروف كتابه فيَفيد بقراءته ويصل به الأمر الى هدفه وغايته .

ويبدو أن الاستقرار السياسي – غالباً - ما يكون مدعاة لإبداع المبدعين وظهور العلماء المهتمين بشتى العلوم ، ولقد كانت هذه سُنَّةً من سنن الأمم والشعوب ، فهذا ابن حزم يقول[1]: " يفيد لغةَ الأمة وعلومها وأخبارها ، قوةُ دولتها ونشاط أهلها وفراغهم ، وأمّا من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر ، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ، ونسيان أنسابهم وأخبارهم ويبور عملهم ".

هذه حقيقة تجلت في بعض الأحايين على امتداد سنيِّ الإمبراطورية العثمانية المديدة . وقد فردت أجنحتها على المشرق دهراً ، فها هي مراحل الاستقرار المتفرقة تترك لها آثاراً وبصمات واضحة " فبعد السلطان سليمان القانوني تتابع على العرش العثماني سلاطين ضعاف ، وتعرضت الإمبراطورية لهزائم عسكرية وبحرية كبيرة"[2].

([1])الإحكام لابن حزم ٣٤/١.

([2]) انظر : تاريخ المشرق ١٠٩ .

مكانة ابن هشام

كانت حياة ووفاة ابن هشام قبل انتهاء عصر السلاطين الأقوياء ،ما يعني بروز علماء كثر في ذلك العصر أمثال ابن قدامة المقدسي(ت٦٢٠هـ)وابن حجر العسقلاني (ت ٧٤٤هـ) وفخر الدين الجاربردي(ت٧٤٦هـ)والمرادي(ت٧٣٩هـ)وابن عقيل (ت ٧٦٩هـ)وابن السبكي (ت ٧٠٨هـ) وابن منظور،صاحب أكبر معجم لغوي وأجمعها على الإطلاق ،وهو لسان العرب (ت٧١١هـ) وصاحب أوسع تفاسير القرآن الكريم انتشاراً ، وهو ابن كثير(ت ٧٧٤هـ).

وتجدر الإشارة – هنا - إلى العوامل التي أثرت في ظهور تلك النتائج الثقافية الرائعة .

فانتشار المدارس والاهتمام بالكتب والثقافة شجع كثيراً من علماء المسلمين على القدوم للتدريس فيها ، فمثلاً ، حضر إلى مصر أكثر من رائد من أصحاب المؤلفات الشهيرة ، ولمن تابع كتاب النجوم الزاهرة من بدايته حتى نهايته يقرأ أسماء كثيرين أتوا مصر في عهود الاستقرار وبناء المساجد والمدارس ، خاصة بعد أن " عمّرت في أيام الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١هـ) والتي زادت على ثلاثين مسجداً " كما يقول ابن تغري بردي [١].

وكان ابن هشام بين هؤلاء كالنجم الساطع ، قال عنه ابن خلدون[٢]: " ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور- يعني عصور المتأخرين - ديوان من مصر ، منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها ، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة وسماه بالمغني في الإعراب ، فأتى من ذلك بشيء عجيب ، دال على قوة ملكته واطلاعه ".

وواكبت حياة ابن هشام العلمية حياة علماء أفذاذ ، فقد أدرك كبار علماء النحو حتى أنه "تلا النحو على ابن السراج" [٣] و"قرأ على الفكهاني جميع شرح الإشارة "[٤].

ومما يذكر عن ابن هشام أنه كان كثير الطواف بين العلماء وفي المساجد ، حيث إن هذا العصر قد " فتح سلاطينه المساجد للعلماء وحِلق العلم ، فمثلاً ، كان جامع عمرو بن العاص في

([1])النجوم الزاهرة ٩٩/٨ .

([2])مقدمة ابن خلدون ٥٤٧ .

([3])انظر : الدرر الكامنة ٣٠٨/٢ .

([4])انظر : الدرر الكامنة ٣٠٨/٢ .

القاهرة والجامع الحاكمي الذي كانت تدرّس فيه العلوم ، إضافة إلى المدارس التي أقامها سلاطين المماليك ، ولا يمكن حصر عددها ".[١]

وتذكر كتب التاريخ أنه "كان بمصر والقاهرة زلزلة عظيمة دمرت منائر عدة ومباني كثيرة من الجوامع والبيوت ، حتى أقامت الأمراء ومباشر الأوقاف مدة طويلة ترمِّم وتجدد ما تشقق فيها من المدارس والجوامع حتى منارة الإسكندرية ... ومنها الجامع الحاكمي ، عمّره المظفر بيبرس بعدما شعثته الزلازل"[٢] .

([1])انظر : صبح الأعشى ٣٦٧/٣ .

([2])انظر : النجوم الزاهرة ٢٢٠/٨ .

أهمية كتاب شرحه قطر الندى

يعد كتاب سيبويه ، الأثر النحوي الذي لم يخلُ كتاب أو عالم نحوي من ذكره أو الإشارة إليه ، "طائفة من هؤلاء العلماء قاموا على خدمة هذا الكتاب ، بين شرح له ، أو تعليق عليه أو تفسير لأبياته ، أو كلام على أبنيته ، ومنهم المشارقة والمغاربة والأندلسيون ، ومنهم المصريون" [١].

وبدأ يظهر منهج التفصيل والتوضيح جلياً في كتب النحاة ، ليسهل تعليم الناس والمشتغلين بالنحو ، منذ الزجاجي وكتابه الجمل ، فقد " انتفع به الطلبة ، وهو كتاب المصريين ، وأهل المغرب وأهل الحجاز واليمن والشام ، إلى أن اشتغل الناس باللمع لابن جنِّي والإيضاح لأبي علي الفارسي"[٢] ما يعني أن هذه الكتب الثلاثة أصبحت توضيحات وشروحاً لما جاء في كتاب سيبويه ، وإضافات لعلمائها كل حسب مذهبه النحوي . يقول ابن خلدون عن تغيّر حركات الكلمات[٣] : " اصطلحوا على تسميتها بعلم النحو...وانتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي ... وأخذها عن سيبويه فكمّل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها... ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاجي كتباً مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه...وحدث الخلاف بين أهلها - يعني صناعة النحو - في الكوفة والبصرة ... وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن...وجاء المتأخرون فاختصروا كثيراً من ذلك الطول " ثم يشير ابن خلدون[٤] إلى كتاب المغني لابن هشام ، ككتاب تعليمي آخر.

([1])انظر : الكتاب ٣٦/١ .

([2])انظر : إنباه الرواة ١٦١/٢ .

([3]) مقدمة ابن خلدون ٥٤٦ - ٥٤٧ .

([4]) مقدمة ابن خلدون ٥٤٧ .

وهكذا فقد اتضح أن ابن هشام واحد من العلماء الذين ساهموا في تعلـيم النحـو وقواعـده للمهتمين وطلاب العلم ، الأمر الذي يجعل كتاب القطر - على صغره(تسع وعشرون صفحة) ، وشرحه الذي قدمّه ابن هشام زيادة في التوضيح - كتاباً ذا قيمة تعليمية . يقول في مقدمته[1] : " وبعد ؛ فهذه نكت حررتها على مقدمتي المسماة بقطر الندى وبل الصدى ، رافعـة لحجابهـا ، كاشفة لنقابها مكملة لشواهدها ، متممة لفوائدها ، كافية لمن اقتصر عليها ، وافية ببغية من جـنح من طلاب علم اللغة العربية إليها".

فهو إذاً كتاب للناشئين ، سهلة عبارته ، واضحة مقاصده ، بدون تعقيد أو كثرة تطرق إلى اختلافات النحاة ومذاهبهم ، تكثر فيه الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية والشعرية والنثرية مـن كلام العرب . ولقد احتوى الشرح على خمسين ومائة شاهد شعري .

هذا وسيقوم الباحث بذكر المنهج الذي اتبعه ابن هشام في كتابه في الفصل الثالث ، وبيـان مدى إفادة طلاب العلم من هذا الأثر العظيم .

([1]) شرح قطر الندى ١٠ .

القسم الأول
الدراســــــــة

الفصل الأول
الفيشي وعصره

الحياة السياسية والثقافية

ربما أصبح متكلفاً الخوض في المعالم السياسية أو الاجتماعية للحياة العربية في ظل الإمبراطورية العثمانية ، فقد زخرت الدراسات والبحوث العلمية المتعاقبة بكثير من الملاحظات السلبية عن تلك الحياة[١] أو الملاحظات الإيجابية ، مدافعين عنها أو مبررين لها ولظروفها أو ملقين كل سلبية فيها على عاتق الآخرين[٢] .

ومع ذلك فإن علاقة ما ،من بعيد أو قريب ، لا يمكن تجاهلها بين الحياة السياسية والاجتماعية من جهة والحياة الثقافية من جهة أخرى ، ولذا فسوف يتطرق الباحث إلى الحياة السياسية التي واكبت فقط أو أحاطت السنوات التي عاشها الفيشي - رحمه الله - وأثرها على الحياة الثقافية في حينها.

أولاً : الحياة السياسية

([1])انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ٦ .

([2])انظر : تاريخ المشرق العربي ١٣٤ وتاريخ الدولة العلية ٢٥٧ – ٢٥٨ ؛ ٢٦٤ – ٢٦٥ .

في أتون التقلبات السياسية والعسكرية التي مرت بها الإمبراطورية العثمانية كانت مراحل استقرار لا يمكن تجاوزها ، منها ما سبق حياة الفيشي مباشرة أو واكبها أو أعقبها .

لقد استمرت الدولة العثمانية مصدر تهديد للغرب بين القرن الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين ، ثم توسعت في القرن السادس عشر إلى البلاد العربية في المشرق والمغرب - وهو القرن السابق لقرن الفيشي - مما وضع هذه البلاد في إطار سياسي واحد ، وجعلها مفتوحة لحركة التجارة الداخلية والاتصال البشري[١] .

وظلت تلك القوة خمسين عاماً بعد فتح العثمانيين لمصر... ، و" بموت السلطان سليمان القانوني(ت١٠٠٧هـ) عام ١٥٦٦م انتهى عهد السلاطين الأقوياء الأكفاء ، وانتهى عهد الفتوح من الناحية الواقعية ، رغم الإضافات في رقعة الدولة"[٢].

وأما ما لا يمكن تجاهله في قرن الفيشي أن هناك من السلاطين العثمانيين من أسس لمرحلة القوة والاستقرار ، فالسلطان الغازي محمد خان الثالث (ت ٩٧٣هـ) الذي "سار إلى بلغراد ومنها إلى ميدان الحرب ، فدبّت في الجيوش الحمية الدينية والغيرة على بلادهم "[٣] خاصة بعد أن "جاءت تحذيرات هامة وشديدة اللهجة من العلماء والخبراء للسلاطين بما يجري من تحت أرجلهم وخلف ظهورهم على أيدي الأوروبيين ... الخ "[٤].

ولم تكن الحياة الثقافية في القرن الحادي عشر الهجري وليدة الساعة منقطعة عمّا سبقها من العصور وخاصة عصر المماليك الذين لم يتوانوا في احترام العلماء ورجال الدين لحاجتهم إليهم حيث إنهم غرباء ، وهؤلاء سنَدُهم في تكريس حكمهم . فلقد بدت معالم هامة في عصر المماليك وطَّأت للحياة الثقافية في مصر ، منها :

- "هجرة كثير من العلماء إلى مصر من حلب والشام وبغداد بعد اجتياح الغزو المغولي ، فكان منهم ابن مالك وأبو حيان الأندلسي"[٥].

- إبداء المماليك اهتمامهم بالعلم والعلماء "فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والرُّبط وأوقفوا عليها الأوقاف المُغِلّة... فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد ، وكثر طالب

([1])انظر : التكوين التاريخي للأمة العربية ١٣٠ .

([2])انظر : تاريخ المشرق العربي ١٠٩ .

([3])انظر : تاريخ الدولة العلية ٢٦٧ .

([4])انظر : تاريخ المشرق العربي ١١٦ .

([5])انظر : نشأة النحو ٢٢٧ .

العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها ، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العـراق والمغـرب ، ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها"[١]

- "انتشرت المدارس حتى لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"[٢] .

- "اهتم سلاطين المماليك بعلوم العربية ولم يدع كثير منهم الفرصة تفوته ليـتعلم اللغـة ، حتى يسهل عليهم التعامل مع أبناء البلاد التي يحكمونها وكان السلطان الناصر حسن بن قلاوون (ت ٧٦٢هـ) أكثر السلاطين الذين اهتموا بذلك" [٣] .

و" إن تميز الدراسات النحوية في مصر بتأليف المنظومـات والمختـصرات النحويـة ، البعيدة عن الاتجاهات والمدارس المتعصبة"[٤] ما كان له الأثر في التوطئة لعصر تعلـيم النحـو وتيسير بلوغه للدارسين .

كل هذه الظروف الاجتماعية والثقافية هيّأت للعصر العثمـاني أجـواء صـحية ليواصـل المشوار ، وليس للوقوف حجر عثرة أو طمس معالم تلك الثقافة ، وهناك شهادات عدّة لهذا الفتح الإسلامي للبلاد العربية توّجها الشيخ مخلوف في شجرة النور الزكية بقوله[٥] : "اعلـم أن بهـذا الفتح - يعني لأفريقيا كلها - رفع الله عن أهالي الوطن النوائب والمـصائب والمحـن ولـسان حالهم يقول : الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن" وذلك بما استتب من أمن فيها .

ولا بد – هنا - من ذكر ما جرى من تعاون وتداخل بين العثمانيين والـشعوب العربيـة ، وخاصة الشعب المصري ، فهذا إبراهيم باشا الذي لُقّبَ بالمصري "نشر الراية المصرية في بلاد العرب والشام وجنوب الأناضول والسودان وانتصر بالمصريين لا بغيرهم ، ولم يكن ذلك منـه إلاّ لإعلاء شأن الوطن المصري واستقلاله في الداخل ، ونشر نفوذه في الخارج"[٦].

- ولم يثبت الأمر طويلاً حتى "أخذ الباشا العثماني المبعوث من القسطنطينية يفقـد سـلطته الحقيقية في الأمور الداخلية "وكان جهله للغة البلاد المحكية وعاداتها من الأمور التي حالت دون نجاح مهمته ، وكثرت النزاعات بين الباشوات منذ أول القرن السابع عشر وأصبحت أمراً مألوفاً في تاريخ البلاد السياسي... وفيما كانت السلطة المركزية في القسطنطينية في طريق الانحطـاط الذي سلكته ، كانت مكانة الولاة أو نواب السلطان في الأمصار تتـضاءل ويـضعف نفـوذهم ،

([1])انظر : مقدمة ابن خلدون ٤٣٤ - ٤٣٥ .

([2])انظر : رحلة ابن بطوطة ٥٦ .

([3])انظر : النجوم الزاهرة ٢٤١/١٠ .

([4])انظر : نشأة النحو ٢٢٩ .

([5])شجرة النور الزكية - التتمة ١٥٦ .

([6])انظر : تاريخ الدولة العلية ٢٦٥ .

ويقل احترام الرعايا لهم" [١]. و"كثر الغلاء وانتشر القحط والوباء والأمراض وعم الفساد ، وظل ذلك حتى نهاية الإمبراطورية العثمانية"[٢] .

ثانياً : الحياة الثقافية

لم يكد العثمانيون يسيطرون على مصر حتى تغير واقع الحياة في المجالات كلها وخاصة الإدارية فقد "انتقلت الخلافة منها إلى القسطنطينية بإرسال أمير المؤمنين المتوكل على الله وأولاد عمه إلى قاعدة العثمانيين ، فأصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت حضارة الشرق ومركزها... وأصبحت اللغة التركية هي لغة الدواوين"[٣] .

"ولما كان أعظم القدر والاعتبار يُخلع على التفقه في الدين والشرع الإسلامي"[٤] فقد اعتنى العثمانيون أكثر بالأزهر وطلبة العلم ، وعلى رأسهم شيخ الأزهر باعتباره الأب الروحي للمسلمين في مصر ، حتى بعد تأخر العلم " فلم يبق منه إلا الملامح في الأزهر الشريف ، وذلك يرجع إلى أن الاهتمام انصب بالأساس على أمور الدين"[٥].

ثم إن السلاطين العثمانيين قد أصبحوا ينطقون باللغة العربية بسهولة " ذلك لأنها لغة الدين ، ومنهم كان الأديب والشاعر والكاتب والفقيه"[٦] ، ثم بقيت العربية إلى حد كبير لغة الدراسات الدينية إلاّ أنها كما يقال[٧] : "لم تعد لغة الإدارة ، ولم تعد تجد التشجيع الرسمي ، فكانت بقية الفترة العثمانية فترة ركود" .

وهنا يظهر الارتباط بين الحياة السياسية والثقافية "فبعد موت السلطان سليمان القانوني تتابع على العرش سلاطين ضعاف ، وتعرضت الامبراطورية لهزائم عسكرية وبحرية كبيرة فيما بين عامي ١٥٦٦- ١٧١٨م ، وحكم الامبراطورية ما لا يقل عن ثلاثة عشر سلطاناً ، لم يُظهر كفاءةً منهم سوى اثنين ، هما : مراد الرابع (١٠٣٣ – ١٠٥٠هـ) ، والسلطان مصطفى الثاني (١٠٦٩- ١١٤١هـ)" [٨] ، ما يعني أن الفيشي - رحمه الله- عاش بعصر مراد الرابع ،

([1])انظر : تاريخ العرب ٨١٧ .

([2])انظر : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ١٦٩/١ .

([3])انظر : المفصل في تاريخ الأدب العربي ٥٠٣ .

([4])انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٨٢ .

([5])انظر : المفصل في تاريخ الأدب العربي ٥٠٣ .

([6])انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٨٦ والدولة العثمانية دولة مفترى عليها ١٦٩/١ .

([7])انظر : التكوين التاريخي للأمة العربية١٣٠ .

([8])انظر : تاريخ المشرق العربي ١٠٩ - ١١٠ .

ومن بعده محمد الثالث ، وهي فترة قوة السلطان ، ومن ثم قوة الحياة الثقافية والفكرية ، "حتى كان الأعداء يسعون - على غير طائل - في سبيل حمل الدول الأخرى على مساعدتهم في حربهم اليائسة للاحتفاظ بمركزهم في الشرق لقد عجزوا عن استنقاذ مدنهم ولكنهم تقدموا شيئاً ما سنة (١٠٦١هـ) ١٦٥١م ووفقوا إلى دحر الأسطول العثماني"[١] .

وفي تلك السنة توفي العلامة الفيشي- رحمه الله - وقد عاش مرحلة من مراحل الاستقرار الفكري والسياسي تكاد تمتد فترة حياته بكاملها ، ومع ذلك فقد شابت تلك الفترة شوائب ، حيث " نقل العثمانيون أكثر الكتب بخزائن المدارس إلى القسطنطينية فحرمت مصر أغلى كنوزها ، ثم نقلوا كثيراً من العلماء والأدباء و...إلى بلادهم ، وكان من نتائج الفتح أن قلّت أموال الأوقاف التي كانت محبوسة على العلماء وطلبة العلم فتفرق الطلاب وانفضت سوق العلم" [٢].

وصف جماعة الحياة العثمانية العلمية بأنها كانت " خلُوًّا ، أو تكاد ، من الأصالة والإبداع ، فهي تتخذ سبيلها في مجاري التقاليد والاتباع ، وكان أعظم القدر والاعتبار يخلع على الفقه في الدين والشرع الإسلامي ...ولم يكتب باللسان الوطني غير بعض الكتب الوعظية الموضوعة لعامة القراء ، والواقع أن فضيلة العلماء العثمانيين ليست في عمق التفكير ولكنها في الذاكرة الجامعة والتطبيق الجلِد الصبور" [٣].

"وأصبحت اللغة التركية لغة الدواوين ، وغزت كثير من الكلمات التركية كتابات الأدباء تظرّفاً وتشبثاً بلغة الغالبين ، وطوي بساط ديوان الإنشاء الذي كان له الفضل الأكبر في إحياء العربية وآدابها" [٤].

وكان تقدم بث العلوم ذا بداية بطيئة ؛ لأنه "لما آل الأمر للدولة وكان الذين قدموا من الأتراك لأفريقيا غير منتظمي التصرف إلا القليل منهم ، لم يقع منهم التفات لتدارك العلم الذي كاد يضمحل في ذلك العهد ، ثم عاد لهذا القُطر المأنوس ما انقطع عنه شيئاً فشيئاً"[٥] .

ولقد "انبرى كثير من سلاطين العثمانيين للاهتمام بمظاهر العلم والثقافة كلها شكلاً ومضموناً ، فقد عمّرت أيام الناصر محمد بن قلاوون مساجد كثيرة ، كانت قد هدمتها الزلازل ، وكانت منارات للعلم" [٦]. إضافة إلى ما أقاموه من المدارس والمكتبات ومنارات تزخر بها بلاد

([1])انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ٥١٦ .

([2])انظر : المفصل في تاريخ الأدب العربي ٥٠٣ .

([3])انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٨٢ .

([4])انظر : المفصل في تاريخ الأدب العربي ٥٠٣ .

([5])انظر : شجرة النور الزكية - التتمة ١٥٧ .

([6])انظر : النجوم الزاهرة ٩/ ١٤٤-١٤٧ .

العرب وخصوصاً مصر التي أصبحت منارة للعلم ومحجة للعلماء من الأقطار العربيـــة ، فقـــد " وجدوا فيها مجالاً للعلم من المرحلة الدنيا إلى العليا"[١] .

تلك هي أهم الملامح الثقافية التي واكبت حياة العلامة الفيـــشي أو أحاطـــت بهـــا تقـــدُّماً أو تأخراً، وما حملته من تقلبات إيجابية أو سلبية تعطي صورة يرجو الباحث أن تكون مفيـــدة فـــي بيان أثر هذه الحياة على العلامة الفيشي وحياته الثقافية.

حياة الفيشي

اسمه وكنيته ولقبه

هو يوسف بن حسام الدين الفيشي ، المالكي : من كبار مشايخ الأزهر الملازمين للتدريس . وقد اختلف في كنيته ولقبه ، فأطلق عليه[٢] : "أبو الحسن يوسف بن عبد الله القيسي" ، وقد حسم بعضهم ذلك فقال[٣] : "إن القيسي خطأ الطبع. وقد ولد الفيشي - رحمه الله - ببلدة فيشة بمـــصر

([1])انظر : صبح الأعشى ٣٦٧/٣ وتاريخ الشعوب الإسلامية ٤٣٤-٤٣٥ .

([2])انظر : خلاصة الأثر ٥١٠/٤ وشجرة النور الزكية ٣٠٣ .

([3])انظر : الأعلام ٢٥٢/٨ .